المهمة الانتحارية

محمود سالم

المهمة الانتحارية

تأليف
محمود سالم

هنـــداوي

المهمة الانتحارية

محمود سالم

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: وجدان توفيق

الترقيم الدولي: ٣ ٢٨٨٥ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر هذا الكتاب عام ١٩٩٢.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٢.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي.
جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي محفوظة لأسرة السيد الأستاذ محمود سالم.

المحتويات

من هم الشياطين الـ «١٣»؟	٧
أبطال هذه القصة	٩
اجتماعٌ طارئٌ!	١١
السَّفر!	١٥
للرجال فقط!	١٩
لماذا عثمان؟!	٢١
طاقم الإغاثة!	٢٥
أحداث متلاحقة!	٣١
قناصة الموت!	٣٥

من هم الشياطين الـ«١٣»؟

إنهم ١٣ فتًى وفتاةً في مثل عمرك، كلٌّ منهم يُمثِّل بلدًا عربيًّا. إنهم يقفون في وجه المؤامرات الموجَّهة إلى الوطن العربي ... تمرَّنوا في منطقة الكهف السِّري التي لا يعرفها أحد ... أجادوا فنون القتال ... استخدام المسدسات ... الخناجر ... الكاراتيه ... وهم جميعًا يُجيدون عدة لغات.

وفي كل مغامرةٍ يشترك خمسة أو ستة من الشياطين معًا ... تحت قيادة زعيمهم الغامض رقم «صفر» الذي لم يرَه أحد، ولا يعرف حقيقته أحد.

وأحداث مغامراتهم تدور في كل البلاد العربية ... وستجد نفسك معهم مهما كان بلدك في الوطن العربي الكبير.

أبطال هذه القصة

رقم «١»: «أحمد» من مصر.

رقم «٢»: «عثمان» من السودان.

رقم «٣»: «إلهام» من لبنان.

رقم «٤»: «هدى» من المغرب.

رقم «٥»: «بو عمير» من الجزائر.

رقم «٦»: «مصباح» من ليبيا.

رقم «٧»: «زبيدة» من تونس.

رقم «٨»: «فهد» من سوريا.

رقم «٩»: «خالد» من الكويت.

رقم «١٠»: «ريما» من الأردن.

رقم «١١»: «قيس» من السعودية.

رقم «١٢»: «باسم» من فلسطين.

رقم «١٣»: «رشيد» من العراق.

رقم «صفر»: الزعيم الغامض الذي لا يعرف حقيقته أحد!

اجتماعٌ طارئٌ!

بدأ الشَّياطين يتوافدون واحدًا وراء الآخر.

عندما أُضيئَت الأنوارُ بقاعة الاجتماعات بمقرِّ الشَّياطين السِّرِّيِّ.

وقد بدا عليهم جميعًا علامات القلق والترقُّب للمغامرة الجديدة. مضى من الوقت خمسُ دقائقَ قضاها الشَّياطين في صمت وهم يفكِّرون قبل أن تُضاء اللمبة الحمراء، والتي تعني أن الاجتماع على قَدْر كبير من السِّريَّة والأهمية ... كانت الساعة تقترب من العاشرة مساءً حين سمعوا جميعًا أصوات أقدام يعرفونها جيدًا. تقترب من منصة الزعيم بزجاجها الداكن الذي يسمح برؤيتهم جميعًا بينما لا يستطيعون هم رؤيته.

ألقى الزعيم عليهم التحية بسرعةٍ، في نفس الوقت أُضيئَت خريطةٌ جانبية، وظهرت من خلالها بلدان أوروبا مضاءةً باللون الأخضر، بينما أُضيئَت «يوجوسلافيا» باللون الأحمر. كانت الرسالة واضحةً وصريحةً، ومنها عَلِمَ الشَّياطين أن المغامرة القادمة ستدور في «يوجوسلافيا».

أشار رقم «صفر» بعصاته الطويلة إلى الخريطة فأُطفِئَت كلُّ الأضواء من على الخريطة فيما عدا الأنوار التي تركَّزَت على «سراييفو» عاصمة «يوجوسلافيا» القديمة قبل أن تتفكَّك إلى جمهورياتٍ مُستقِلة.

قال رقم «صفر» بصوته العميق وقد كساه الحزن الذي ظهر بوضوحٍ من خلال كلماته الهادئة: أيها الأصدقاء أعتذر للاجتماع الطارئ الذي قطع إجازتكم بعد المغامرة السابقة، فالموقف خطير، والوقت ضيِّق، والموضوع لا يحتمل التأخير ... فمنذ خمسة شهورٍ سافر أحد المصوِّرين العرب إلى «يوجوسلافيا» في مهمَّة رسميَّة وكانت الجريدة التي يعمل بها قد قامت بتكليفه بهذه المهمة.

منذ أنْ سافر وحتى الآن انقطعت أخباره ولا أحد يعرف عنه شيئًا ... وقد انتشرت إشاعاتٌ تقول إنه قد أُصيب، وبعضها تقول إنه مات إثر الاشتباكات والمعارك الدائرة هناك بين «الصرب» و«المسلمين» في «البوسنة والهرسك»، ثم صمت رقم «صفر» لحظات قبل أن يكمل كلامه قائلًا: لقد فعلنا المستحيل من أجل معرفة أخباره ... وقد نشرت الصحيفة التي يعمل بها صورته وصورة طفلَيه الصغيرَين «جاسر» و«باسم» ... ومعهما نداء إنساني لَمن يعرف أيَّ شيءٍ عن أخباره ولكن بدون جدوى ... وفجأة اتصل بنا مجهولٌ رفضَ ذِكر اسمه ... قال إنه رأى المصوِّر الصحفي قبل أن تأسره القوات «الصربية»، وذكر أيضًا هذا المجهول أن المصوِّر العربي ما زال على قَيْد الحياة، ولكنه يتعرَّض لعملية تعذيب شديدة بسبب الصور التي التقطها للجنود «الصرب» وهم يعذِّبون النساء ويقتلون الأطفال. وانتهت إلى هنا المعلومات التي قدَّمها هذا المجهول والذي تحدَّث باللغة «اليوجوسلافية»، وذكر أنه من أبناء «الصرب» ممَّن يرفضون السلوكَ الإجراميَّ الذي يتبعه مواطنوه في حقِّ «المسلمين» و«الكروات» هناك.

صمت رقم «صفر» مرةً أخرى قبل أن يمدَّ عصاته اللامعة باتجاه الخريطة المضاءة على «سراييفو» ... ثم تحدث قائلًا: ومنذ أيام اتصلت بنا زوجة المصوِّر العربي وطلبت منا مساعدتها في عودة زوجها لأبنائه!

أيها الأصدقاء ... لا أُخفي عليكم أنني تردَّدتُ بعض الشيء لصعوبة هذه المهمة وخطورتها، برغم ثقتي بكم وبكفاءتكم فإنني قَلِق بشأن هذه المغامرة؛ فالمعارك الدائرة هناك وصلت إلى الذروة والقوات «الصربية» احتلَّت أماكن كثيرة من «البوسنة والهرسك»، و«سراييفو» على وَشْك السقوط، وقد بلغَتْني الأخبار بأن الوضع هناك خطير، وينبئ بمأساة أكبر مما نتصوَّر.

مضى رقم «صفر» يقول: إننا لا نعمل بالسياسة ... ولا نتدخَّل في شئون أحد ... ولكن الوضع يختلف الآن، ولا أُخفي عليكم تعاطفي الشديد مع «المسلمين والكروات» هناك، والمهمة التي أعرضها عليكم تتلخَّص في فكِّ أَسْر مصوِّرنا العربي الشجاع الذي ضحَّى بنفسه من أجل تصوير بشاعة ما يفعله «الصرب» بأهالي «البوسنة والهرسك». لقد قمتُ بعدة اتصالات ببعض رجالنا هناك. وأبلغوني بمعلومات مهمة قد تساعدكم إلى حدٍّ كبير في مهمتكم، والتي لن تُقْدِموا عليها إلا بعد إجراء تصويت عَلَني على الدخول في هذه المغامرة الخطيرة أم لا ... وبعدها سنقرِّر ماذا نفعل وسأُطلعكم على كلِّ التفاصيل التي حصلنا عليها من رجالنا هناك.

الآن نبدأ التصويت على قرار الاشتراك والأمر متروكٌ لكم، فالمهمة صعبةٌ وحِرصي وخوفي عليكم يدفعني لإجراء هذا التصويت لأول مرة منذ قيامكم بأول مغامرة وحتى آخِر مغامرة قُمتم بها في «نادي الشر» ولم يكَد رقم «صفر» ينتهي من كلماته حتى ارتفعت أيدي الشَّياطين لتُعلن بالإجماع على الدخول في هذه المغامرة، بل وعلى وَجْه السرعة.

تحدَّث رقم «صفر» في سعادة قائلًا: لقد كنتُ متأكِّدًا من مشاعركم وشجاعتكم ... لنبدأ إذَن في سَرْد المعلومات التي وصلتنا حتى الآن، ورجالنا يقومون بجَمْع المزيد منها لتسهيل مهمتكم أكثر ... لقد توصَّل رجالنا إلى معلومات مهمة بشأن مصوِّرنا العربي الشجاع، فبعد الأَسْر توجَّه به «الصرب» إلى مناطق الأَسْر جنوب جمهورية «الجبل الأسود» والتي تساعد «الصربيين» على ارتكاب جرائمهم. وبعد فترةٍ تم نَقْل المصوِّر الأسير إلى «سراييفو» خوفًا من هروبه أو تسهيل هروبه، وقد وُضع تحت حراسة مشدَّدة، فهم يخافون أن يحاول تهريب الفيلم الذي قام بتصويره عن المذابح التي قاموا بارتكابها، ولعل هذا هو السِّرُّ في عدم قتله حتى الآن ... وقد فشلت جميع محاولتهم للعثور على الفيلم المذكور.

لقد استطاع أحد أعواننا التعرُّف على أحد المشتركين في عملية الأَسْر وقد أمدَّه بهذه المعلومات ... ولا زال عملاؤنا يحاولون الحصول على مزيدٍ من المعلومات بخصوص المكان الموجود به الأسير العربي وحتى وصول أي جديدٍ ... عليكم الآن مناقشة الخطة التي ستقومون بها. والآن هل لديكم أية أسئلة بخصوص ما سمعتم؟ وقف «أحمد» وحيَّا الزعيم، ثم قال: عندي استفساران أريد أن توضحهما. أنك لم تذكر أيها الزعيم اسم مصوِّرنا الصحفي الأسير، فهل الأمر بهذه الدرجة من السرية؟ وهذا هو الاستفسار الأول ... أما الاستفسار الثاني فيتعلَّق بموقف الصحيفة التي يعمل بها هذا المصوِّر، وكذلك موقف بلده الذي ينتمي إليه.

ما كاد «أحمد» ينتهي من استفسارَيه حتى أطلق رقم «صفر» ضحكةً قصيرةً لأول مرةٍ منذ بداية الاجتماع، وقال: لقد توقعتُ هذه الأسئلة البديهية وهي لا تحتاج إلى إجابات طويلة فمن ناحية الاسم ... فمصوِّرنا العربي اسمه «عبد الرحمن خميس» وأنا لم أتعمَّد إخفاء اسمه ولكنني نسيت ذلك، لتركيزي على ما هو أهم من الاسم الآن ... أما بخصوص موقف الصحيفة التي يعمل بها وكذلك بلده فالأمر يختلف ... فالحرص على حياة هذا المصوِّر الشجاع جعل الأمور تسير بسرِّية كاملة، حتى إن الجريدة أعلنت عن العثور عليه كحركة تمويه حتى لا يشعر الذين أسروه بأهميته فيُقدِمون على قَتْله.

ثم سأل رقم «صفر» من جديدٍ قائلًا: ألديكم استفسارات أخرى ... فيما سمعتم فقط؟ فصاح «بو عمير» وهو يتهيَّأ للوقوف متسائلًا: مَن المجهول الذي اتصل بالصحيفة؟ ... وهل هو نفس الشخص الذي يقوم بمساعدتنا الآن بواسطة عملائنا في «يوجوسلافيا»؟

أجاب رقم «صفر» بكلمات واضحة وقاطعة في نفس الوقت: لا. ليس هو بالضبط يا «بو عمير» وإنْ كان لنا معه اتصالاتٌ الآن ... وأكملَ رقم «صفر» ... إن المجهول الذي اتصل بالصحيفة التي يعمل بها مصوِّرنا العربي «يوجوسلافي» الأصل «صربي» الجنسية، ولكنه يعمل للخير، وقد تطوَّع لمساعدتنا، ولنا معه اتصالاتٌ الآن ... وسيكون له دوره الفعَّال أثناء مغامرتكم الصعبة. ثم كرَّر رقم «صفر» التساؤل مرة أخرى: ألديكم أية استفساراتٍ أخرى؟!

ثم ختم حديثه قائلًا: الآن ... أيها الأصدقاء كونوا في أشدِّ حالات التأهُّب انتظارًا لما تسفر عنه الأحداث القادمة. بعدها سمع الشَّياطين أصوات أقدام رقم «صفر» وهي تبتعد عن المنصة لينصرفوا جميعًا وقد كست وجوههم علامات التحدي والاستعداد!

السَّفر!

قضى الشَّياطين معظم الوقت بعد هذا الاجتماع الطارئ في التدريب والاستعداد ... «عثمان» يحرِّك كرته السوداء الجهنمية ويقذفها بقوة يمينًا ويسارًا في اتجاه أهدافٍ مُعيَّنة فيصيبها بدقةٍ، ويكرِّر هذه العملية عدة مراتٍ، بينما انهمك «أحمد» و«فهد» و«قيس» في مراجعة بعض حركات رياضة «الكاراتيه» و«الجودو» التي يمتازون بها، بينما وقف «بو عمير» وحيدًا يصوِّب بمسدسه السريع الطلقات تباعًا إلى هدف متحرِّك ... وعلى الجانب الآخر كانت «إلهام» و«زبيدة» و«ريم» يراجعن بعض الشفرات ويجهزن أجهزة الاتصال المتنوعة ... كان قصر الشَّياطين كخلية النحل، كلٌّ يعمل في اتجاه في انتظار ساعة التحرُّك حسب الأوامر الصادرة إليهم من رقم «صفر».

عندما اقترب الليل وغربت شمس النهار كان الشَّياطين يتابعون فيلمًا أجنبيًّا عن كيفية تخليص رهينة بأحدث الأساليب ... وأمام شاشة العرض الكبيرة استغرق «أحمد» في التفكير، ثم قال مُحدِّثًا الشَّياطين: أرجو من كلِّ واحدٍ منكم أن يحاول التركيز قَدْر المستطاع، فقد نحتاج إلى نفس الخطة لتخليص مصوِّرنا العربي البطل من الأَسْر.

فأجابه «فهد»: ولكن الظروف قد تكون متغيِّرة تمامًا عما نشاهده الآن، ولا تنسَ كذلك المعارك الدائرة هناك مما يجعلنا نتحرَّك تحت وابلٍ من الرصاص والقذائف الصاروخية التي يطلقها المعسكر «الصربي».

وافقه «أحمد» على هذه الملحوظة، وسرعان ما تدخَّلَت «إلهام» في الحديث قائلةً: على كلِّ حالٍ قد تختلف الأساليب باختلاف أرض العمليات، ولكن في النهاية يبقى الهدف واحدًا، وهو تخليص الرهينة من أيدي مختطفيها.

جلس الشَّياطين حول حمَّام السباحة بالمقرِّ السِّرِّي وكانت مياه الحمَّام الزرقاء صافيةً ... وحوله دارَ نِقاش طويلٌ عن المغامرة القادمة وكيفية وَضْع الخطة على ضوء المعلومات

التي سوف يطلعهم عليها رقم «صفر». كانت الساعة تقترب من التاسعة مساء حين دوَّى جرس الاجتماعات، فاتجه الشَّياطين بسرعةٍ إلى قاعة الاجتماعات الصغرى والملحقة بالدور الثاني.

ما إنْ أخذَ كلُّ واحدٍ منهم مكانه حتى سمعوا جميعًا صوت أقدام رقم «صفر» وهي تقترب من المنصة الدائرية. حيَّاهم الزعيم ثم جلس خلف زجاجها الداكن، وبدأ الحديث قائلًا: لقد حان موعد التحرُّك إلى «يوجوسلافيا». فقد توصَّل عملاؤنا أمس إلى المكان المحتجز فيه المصوِّر الصحفي الشاب.

صمت رقم «صفر» لحظاتٍ وهو يقلِّب في ملف ضخم ممتلئ بالأوراق أمامه ثم قال وهو يمدُّ يده باتجاه زرٍّ أحمر أمامه ... هذه هي صور أسيرنا الشاب ... وما كاد ينتهي من جملته حتى أُضيئَت لَوْحة خلفيةٌ ظهر فيها شابٌّ طويل القامة قمحيُّ اللون ذو شارب كثيف ... كان الشاب يتجوَّل وبيده كاميرا ... وتكلَّم رقم «صفر» وهو يُشير باتجاه الصورة المرئية: هذا هو مصوِّرنا الشاب «عبد الرحمن خميس»، ثم اختفت صورة «عبد الرحمن» لتظهر على الشاشة صورة طفلَيه «جاسر» و«باسم»، وفيها أمهما، وأكمل رقم «صفر» تعليقه على الصور قائلًا: وهذان هما أبناء مصوِّرنا الشاب، وهذه هي زوجته، وقد صوَّر هذا الفيلم «الفيديو» عندما كان يعيش «عبد الرحمن» بمنزله بأحد البلدان العربية.

توقفت آلة العرض، وساد الظلام لحظة قبل أن تُضاء الأنوار ويبدأ رقم «صفر» الكلام من جديد عن آخِر الأخبار التي وصلَتْه بشأن المصوِّر المُحتجَز، فقال: لقد أبلَغَنا عميلنا في «يوجوسلافيا» أن «عبد الرحمن» بخيرٍ، وإنْ كان قد تعرَّض لعملية تعذيب بشعة من أجل الحصول على الفيلم، وقال عميلنا أيضًا: إن «عبد الرحمن» موجودٌ بأحد الأبنية القديمة في «سراييفو» بعد أن استولى عليها جنود «الصرب» بعد معارك عنيفة مع مسلمي «البوسنة والهرسك».

أكملَ رقم «صفر» حديثه: إن الحراسة المشدَّدة المفروضة على مصوِّرنا الشاب جعلَت الاتصال به أمرًا في غاية الصعوبة؛ فالصربيون يتميَّزون بالعنف ولا يُرهبهم شيءٌ، وقد أعدوا لحراسة «عبد الرحمن» مجموعة من القنَّاصة يُطلقون عليهم «قناصة الموت»؛ نظرًا لقدرتهم الفائقة على استعمال الأسلحة النارية، فضلًا عن إجادتهم فنون القتال بالأيدي ... بل إن معظمهم كانوا أبطالًا في لعبة «الكاراتيه» و«المصارعة»، وهذا مما يزيد من صعوبة الأمر ... إن التفوُّق على هؤلاء الرجال مرهونٌ بعنصر المفاجأة والتخطيط السليم ... ولذا أقترح عليكم الذهاب بمجموعة التحدِّي التي تتألَّف من «بو عمير» و«قيس» و«فهد»،

بالإضافة إلى «أحمد» و«عثمان» ... على أن تبقى بقية المجموعة في حالة تأهُّب قصوى؛ لاحتمالات التطورات المتوقَّعة وغير المتوقَّعة!

ثم أكمل رقم «صفر» حديثه قائلًا: الآن سأعرض عليكم مواصفات المكان الذي سوف تقتحمونه عندما تحين الفرصة، وكذلك سوف أشرح لكم أماكن الحرَّاس، وكيفية تبادل نوبات الحراسة على ضوء آخِر تقرير وصلَني بهذا الشأن من رجالنا في «سراييفو».

صمت رقم «صفر» لحظات ... راح خلالها يقلِّب فيها أوراق الملف الضخم الذي أمامه، ثم توقَّف عن التقليب بعد قليل ليقول: إن البناء الذي سوف تقتحمونه عبارةٌ عن منزل قديم مكوَّن من طابقَين، وتحيطه مجموعةٌ من الأشجار الضخمة ... وسطح المنزل ليس أفقيًّا كمعظم الأسطح ... لكنه مائلٌ على الجانبين كسقف الخيمة، وبه مدخنتان؛ واحدة للمطبخ والأخرى للمدفأة ... أي على الطراز الأوروبي ... أما مكونات المنزل من الداخل، فالطابق الأول يتكوَّن من ثلاث غُرف وأربع صالات واسعة الاتساع، كانت تُستخدَم كقاعات استراحة، وللاجتماعات الضرورية لصاحب المنزل ... وهو رجل أعمال ثري «روسي» الأصل، «يوجوسلافي» الجنسية.

أما الطابق الثاني في المنزل ... فيتكوَّن من مجموعة غرف، تبلغ الثلاث، وهي مُخصَّصة للنوم فقط، ومُجهَّزة بأحدث أساليب الراحة والترفيه ... ولم يحدِّد تقرير عميلنا في «يوجوسلافيا» مكان «عبد الرحمن» بالتحديد ... ولكن من المرجَّح أن يكون في الطابق الثاني؛ لسهولة حراسته ... وإحباط أية محاولة لهروبه. أما عن عدد الحراس، فهناك خمسة منهم يختبئون بين غصون الأشجار العالية والتي تخطَّت بمراحل ارتفاع المنزل، الأمر الذي يجعلهم يُسيطرون بإحكام على شتَّى جوانبه ... ويتبادل الحراس نَوْبات الحراسة كل ست ساعاتٍ، أمَّا الحرَّاس الموجودون بأسفل المنزل فعددهم أقل، فواحد فقط يرافق «عبد الرحمن» وحسب توقُّع رجالنا هناك، ومن المرجَّح أن يكون مكان إقامته في الطابق الثاني، بينما يوجد حارسان في الطابق الأول لا يكُفَّان عن التجوُّل حول المنزل في فترات متقطِّعة ... أما من ناحية التسلُّح ... فإن مجموعة «قناصة الموت» تتسلَّح عادةً برشاشات سريعة الطلقات، وهي صغيرة الحجم «يوجوسلافية» الصنع، تُحمل على الكتف، ويمكن طي أجزائها لتوضع مُعلَّقةً بحزام السروال.

سكت رقم «صفر» لحظات أغلقَ فيها الدوسيه الضخم، ثم وجَّه حديثه إلى الشَّياطين قائلًا: هذا كلُّ ما توصَّل إليه رجالنا هناك ... ولكم الآن حرية وَضْع الخطة المناسبة على

ضوء ما سمعتم، على أن يكون لنا لقاءٌ قبل السفر لأُطْلعكم على آخِر الأخبار، وما يمكن أن يقدِّمه لكم رجالنا هناك حسب إمكانية ذلك.

فالأمر في غاية الصعوبة، والحياة في «سراييفو» شِبه متوقِّفة ... وأخيرًا لكم شُكري ودعواتي، ولنا لقاءٌ آخَر قبل سفركم!

للرجال فقط!

كان «أحمد» و«بو عمير» و«فهد» و«قيس» ومعهم «عثمان» على وشك الانتهاء من تجهيز وتحزيم حقائبهم، وقد وقف «أحمد» أمامهم، وقد أمسكَ بورقة صغيرة يُراجع فيها احتياجات المهمة الصعبة، وأخذ يردِّد من ورائه «عثمان» يؤكِّد ... أسلحة ... مساحيق ... تخدير ... مسدسات ... إبَر ... أجهزة تشويش ... أدوات تنكُّر وغيره، كلُّ هذا من متطلبات العمل ... وبعد أن تأكد الجميع من وجود كلِّ ما يلزم المهمة تفرَّق الشَّياطين للنوم عدا «أحمد» الذي ظلَّ ساهرًا يفكِّر في وَضْع الخطة المناسبة لفك أَسْر المصوِّر العربي «عبد الرحمن»، وأخذ يجول بفكره لدراسة كلِّ الاحتمالات التي يمكن أن يواجهوها هناك.

كانت خيوط الفجر تقترب ومعها النعاس الذي أطبقَ على جفنَي «أحمد»، فراحَ في سبات نوم عميق.

جاء الصباح الباكر بيوم عمل مشحون، فقد كانت التعليمات الصادرة من الزعيم رقم «صفر» بضرورة وجود رجال «المهمة الانتحارية» بقاعة الاجتماعات الصغرى في تمام الساعة الحادية عشرة صباحًا.

على الفور توجَّه «أحمد» و«عثمان» و«بو عمير» و«فهد» و«قيس» إلى القاعة، وما إنْ دقَّت الساعة لتُعلن الحادية عشرة حتى سمعوا أقدام الزعيم الخفي رقم «صفر»، فحيا الزعيم الشَّياطين بسرعة، ثم جلس خلف منصته الزجاجية.

قال رقم «صفر»: لقد جاءتنا معلومات جديدة بشأن «عبد الرحمن خميس» المصوِّر العربي المُحتجَز هناك، وأهم هذه المعلومات ما تخص الحارس الأعور الغريب ويدعى «ميسوفيتش»، فهو في منتهى الخطورة ... وتصل مهارته في التصويب إلى درجة مائة في المائة، فهو يستطيع أن يستخدم يده اليسرى بمهارة غير عادية وهو قادر أيضًا على إصابة مجموعة من الأفراد متفرِّقين على نحو يثير الدهشة، فلا بد وأن تأخذوا حذركم تمامًا من

ذلك القناص ذي العين الواحدة، فهو بمثابة عشرة رجال بمفرده. وأكرِّر: كونوا حَذِرين عند التعامل معه.

أما عن خطة السفر، فهي كالآتي: ستستقلون الطائرة المتوجهة إلى «إيطاليا» غدًا في الساعة التاسعة مساءً على خطوط شركة «مصر للطيران»، وستهبط الطائرة في مطار «روما» الدولي ... وسيكون بانتظاركم في المطار أحد أعواننا، وستتعرفون عليه بسهولة؛ لأنه سيرتدي قبعة حمراء اللون بشريط أسود، وما عليكم إلا أن تذكروا كلمة «فرعون» سيرفع بعدها قبعته تحيةً لكم، ثم يسير أمامكم على بُعد ثلاثة أمتار ... وفور خروجكم من المطار ستجدون سيارة ميكروباص زرقاء اللون بانتظاركم ... ستركبون السيارة ومعكم صاحب القبعة الحمراء وستعرفون اسمه داخل السيارة ويُدعى «باريزي».

ستتجه بكم السيارة عَبْر رحلة طويلة إلى بلدة صغيرة على شاطئ البحر «الأدرياتيكي» اسمها «باري»، حيث تقضون ليلتكم هناك ... وسينصرف «باريزي» عندما تصعدون على غرفكم ... وفي الصباح سيكون «باريزي» بانتظاركم أسفل الفندق، وسيصحبكم في تمام الساعة العاشرة بتوقيت «إيطاليا» ... عَبْر رحلة بحرية تقطعونها بقارب صغير إلى مدينة «سبليت»، ولن يترككم «باريزي» إلا بعد الالتقاء بعميلنا هناك ويُدعى «سلودان»، ومعه تبدأ مهمتكم الحقيقية.

ستجدون معه تفاصيل الرحلة إلى «سراييفو» ... ثم أكمل رقم «صفر» حديثه بلهجة تحذيرية: لا تنسوا أن تأخذوا معكم كمية من الطعام تكفيكم أسبوعًا على الأقل، فالظروف في منتهى الصعوبة ومواد التموين قليلة جدًّا!

أخيرًا أتمنَّى لكم رحلة موفقة تعودون بعدها وقد أنهيتم مهمتكم الانتحارية على أكمَل وجهٍ. وفقكم الله. وانتهى الاجتماع على صوت أقدام رقم «صفر» وهي تبتعد ... لينهض الشَّياطين بسرعة لإجراء بعض التمرينات الرياضية، وسرعان ما انضموا إلى بقية الشَّياطين.

كانت الساعة تقترب من التاسعة من مساء اليوم التالي حين توقفت السيارة «الشيفورليه» الحمراء أمام مقرِّ الشَّياطين ... دقائق معدودة مرَّت، انتهى فيها رجال «المهمة الانتحارية» من وداع بقية الشَّياطين، ثم توجهوا بعدها إلى السيارة التي انطلقت بهم بسرعة باتجاه المطار.

عندما أعلنت ساعات المطار الحائطية تمام الساعة التاسعة، كانت الطائرة تتحرَّك ببطءٍ على الممر الطويل، وسرعان ما زادت سرعتها تدريجيًّا؛ حتى تركت المدرج، وطارت إلى الفضاء ... لتبدأ مهمة الشَّياطين الانتحارية.

لماذا عثمان؟!

عندما وصلت الطائرة إلى مطار «روما» كانت عقارب الساعة تشير إلى الواحدة صباحًا، حين هبط الشَّياطين الخمسة يتقدَّمهم «أحمد» ... ولم تستغرق إجراءات الخروج من المطار سوى بضع دقائق ... همس بعدها «عثمان» قائلًا: هذا هو «باريزي»، والتفت الشَّياطين باتجاه إشارة «عثمان»، ثم تقدَّموا صَوْب رجل قويِّ البنية، حادِّ القسمات ... يرتدي بذلة سماوية، ويضع قبعة حمراء على رأسه لها شريط أسود.

تقدَّم منه «بو عمير»، وقال بلكنة إيطالية «فرعون».

فابتسم الرجل وهو يرفع قبعته وينحني للأمام مُحيِّيًا «بو عمير»، وسرعان ما استدار وسار ببطء يتبعه الشَّياطين على مسافة ثلاثة أمتار إلى حيث كانت تنتظرهم السيارة الميكروباص الزرقاء، كان محرِّك السيارة معدًّا للانطلاق، وقد جلس خلف عجلة القيادة سائق أشقر اللون يرتدي «تي شيرت» أبيض وبنطلون جينز أسود ... وما إنْ صعد «باريزي» صاحب القبعة الحمراء حتى صعد بعده الشَّياطين، وقد ابتسم السائق وهو ينطلق بالسيارة.

في نفس الوقت الذي صافح فيه «باريزي» الشَّياطين وهو يردِّد بلكنةٍ إيطالية سريعة مرحبًا بكم في «إيطاليا» اسمي «باريزي مالدين»، فضحك «أحمد» وهو يقول: لم نتفق إلا على «باريزي» أما «مالدين» هذا فلا نعرفه!

فضحك «عثمان» وتبعه «بو عمير» وضحك هو أيضًا على قفشة «أحمد»، بينما نظر لهما «باريزي» وفي عينه بريق الاستفسار!

كانت العربة الميكروباص الزرقاء تشق الشارع الرئيسي في العاصمة «الإيطالية» عاصمة الجمال والسحر ... وبريق الأضواء يغمرها من كلِّ جانبٍ، وأجراس كنائسها العملاقة تتبادل الحديث مع أخريات الليل ... والشَّياطين يتأملون في صمت المدينة التاريخية

بتماثيلها المتعددة، وذكرى الرسام العبقري «ليونارد ودافنشي» ولوحته الفريدة «الموناليزا» الباكية المبتسمة تملأ مُخيِّلة الشَّياطين.

أوقف «باريزي» السيارة أمام أحد مطاعم البيتزا «الإيطالية» وهو نوع من الفطائر برع فيه الإيطاليون كبراعتهم في صنع المكرونة الاسباجيتي، وتناول «عثمان» ثلاث فطائر ساخنة وسط ضحكات بقية الشَّياطين وذهول «باريزي» ومازح «بو عمير» «عثمان» قائلًا: أخاف أن تلتهم أصابعك فتفسد معدتك!

فانفجر «قيس» ضاحكًا، وهو يردِّد إنني لست خائفًا على «عثمان» بل خائف على نفسي، ثم نظر «قيس» إلى «باريزي» والسائق الأشقر وكرر نفس القفشة بلغة «إيطالية»، وكانت مفاجأة أنهما لم يضحكا.

كانت الساعة تقترب من الثالثة صباحًا بتوقيت «روما»، انتهى الشَّياطين من تناول فطائر البيتزا الشهيرة وتناولوا مشروب البرتقال ذي العلب الورقية وهم في طريقهم إلى السيارة الزرقاء.

أخرج «باريزي» سيجارًا ضخمًا وقدَّمَه للشياطين فرفضوا جميعًا وهم يردِّدون: إننا لا ندخِّن مطلقًا، فالتدخين ضارٌّ جدًّا بالصحة.

ضحك «عثمان» وهو يمزح مع «باريزي» بلكنة «إيطالية» مكسرة: ليتك تستبدل السيجار بفطيرة بيتزا!

ضحك «باريزي» بعنفٍ وأخذ يسعل مع دخان السيجار الضخم الغريب، واستغرب بقية الشَّياطين لضحكات «باريزي» المتصلة.

كان سائق السيارة الميكروباص بارعًا في قيادة السيارة ويدعى «فاكتي»، وأخذ يتمايل مع موسيقى فرقة «البيتلز» الأمريكية، وهو يتجه إلى جنوب «إيطاليا»، والسيارة تهتز مع أضواء الشفق الأحمر التي غمرت المكان على نحو مفاجئ.

خمس ساعات مضت، قطعت فيها السيارة مئات الكيلومترات حتى وصلت إلى مشارف بلدة «باري» الصغيرة على شاطئ البحر «الأدرياتيكي».

نصف ساعة أخرى قضتها السيارة في السير بشوارع «باري» النظيفة، وتوقفت بعد منحنًى كبير أمام أحد الفنادق الصغيرة ... كان كلُّ شيءٍ معدًّا تمامًا لاستقبال الشَّياطين ولم تستغرق إجراءات السكن سوى دقائق معدودة، صعدوا بعدها إلى غرفهم وألقوا بأجسادهم المتعبة على فراش الفندق المريح وراحوا جميعًا في سُبات نوم عميق متناسين تمامًا تفاصيل الخطة التي تُحتِّم عليهم مغادرة «باري» صباح نفس اليوم إلى «سبليت» عَبْر رحلة بحرية بمصاحبة «باريزي».

استيقظ «أحمد» بعد ساعتَين من النوم العميق فزعًا وهو ينظر إلى ساعته، وأخذ يوقظ الشَّياطين في عجلة، وفجأةً وقعت عيناه على ورقة صغيرة أسفل الباب فاتجه إليها وانحنى ليلتقطها ... كانت الورقة مكتوبة باللغة «الإيطالية» ... ومنها فهم «أحمد» أن ميعاد السفر إلى «سبليت» لقد تأجَّل للمساء لسوء الأحوال الجوية صباح هذا اليوم مما يؤثر على إبحار القارب الصغير بالبحر «الأدرياتيكي» ... وسيكون ميعاد الإبحار في الساعة العاشرة مساءً في نفس اليوم، وطالبهم بالاستعداد لذلك.

أكمل الشَّياطين نومهم حتى الساعة الخامسة مساءً ... حين استيقظوا ... توجهوا جميعًا إلى حمَّام السباحة الملحق بالفندق. وبعد ساعةٍ قضوها في المياه الباردة أحسوا بالانتعاش ... جلسوا بعدها يتناولون وجبة الغداء من السمك البوري المقلي بالزبد مع مجموعةٍ من سلطات الطعام التي تشتهر بها «إيطاليا» ... أيضًا راجعوا بعدها خطة السفر إلى «سبليت» مع أقداح الشاي الساخن.

في تمام الساعة التاسعة والنصف نهض الشَّياطين ليرتدوا ملابسهم ويستعدوا للرحلة البحرية ... ولم تكَد تصل الساعة إلى العاشرة حتى سمعوا طرقات خفيفة، سمعوا بعدها كلمات «باريزي» وهو يُلقي عليهم تحية المساء ... ثم ركبوا بعد ذلك قاربًا صغيرًا بمحرِّك عبر البحر «الأدرياتيكي» باتجاه «سبليت» ... ساعتان إلا ربع قطع فيها القارب الصغير عدة أميال باتجاه شواطئ «يوجوسلافيا» تحت جنح الظلام، وانعكست بعض الأضواء الساهرة على صفحة المياه المضطربة.

كان الجو صافيًا ونسمة هواء حانية داعبت وجوه الشَّياطين، بينما كان «عثمان» مُنهمِكًا في الغناء السوداني، كان «باريزي» ينصت له باهتمامٍ برغم أنه بالطبع لم يكُن يفهم ماذا يغنِّي.

لقد كان صوت «عثمان» رائعًا ومُتمشِّيًا مع جو الرحلة العام ... هدَّأ القارب من سرعته عندما اقترب من شواطئ «يوجوسلافيا»، واستعدَّ الشَّياطين للهبوط مع تعليمات «باريزي» التي تُشدِّد عليهم مراعاة الدقة، ثم فجَّر المفاجأة التي لم يتوقعها الشَّياطين والتي كانت تعني تغيير الخطة من جديدٍ، فقد صدرت الأوامر من رقم «صفر» باستبعاد «عثمان» من المغامرة لأن لونه أسمر سيكون محل شكٍّ، وربما يساعد على كشف أمر الشَّياطين، وكان عليه بالعودة وبصحبته «باريزي» إلى فندق «هابي أوتيل»، على أن يبقى مستعدًّا للاستدعاء فورًا عندما تقتضي الحاجة.

قابل الشَّياطين قرار الاستبعاد بوجومٍ، وكان «عثمان» أكثرهم وجومًا، ولكن سرعان ما انتشرت بينهم ضحكات المرح إثر إشارةٍ من «باريزي»، تعني أن «عثمان» خارج اللعبة مؤقتًا!

عندما احتضنت شواطئ «يوجوسلافيا» قارب الشَّياطين الصغير كان دويُّ المدافع يأتي من بعيدٍ متقطِّعًا عميقًا حزينًا.

صاح «أحمد» وهو يخاطب «باريزي» بالإيطالية عن المسافة بين «سبليت» و«سراييفو» ... وكانت إجابة «باريزي» تقريبيةً؛ إذ تتراوح بين مائة ومائة وخمسين كيلومترًا.

كان «سلودان» أحد عملاء رقم «صفر» بانتظار الشَّياطين بعد ما علم بتأخير الرحلة عن طريق «باريزي» ... صافح الشَّياطين بحرارةٍ واتجه بهم إلى السيارة «الزستافا» «اليوجوسلافية» والتي سرعان ما انطلقت بعد أن ودَّع الشَّياطين «عثمان» وهو في طريقه للعودة إلى «باري». بينما أشار لهما «باريزي» بعلامة انتصار وهو يتأبَّط ذراع «عثمان» ويبتسم!

طاقم الإغاثة!

كانت السيارة تشقُّ طريقها بسرعةٍ تجاه «سبليت» ويقودها «سلودان» المبتسم دائمًا، بينما راح الشَّياطين يتأمَّلون مدينة «سبليت» الجميلة والتي شهدت عرسين على مدار حياتها، فقد أُقيمَت بها دورة أوليمبية كالتي أُقيمَت في «برشلونة»، وكذلك احتضنت دورة «البحر الأبيض المتوسط» والتي تشترك بها كلُّ الدول التي تطلُّ على البحر الأبيض المتوسط.

كانت الساعة تقتربُ من الثامنة صباحًا حين اقتربت العربة «الزستافا» من مدينة «سراييفو» وعلى بُعد عشراتٍ من الكيلومترات توقَّفَت السيارة وهبط منها «سلودان» وتبعه الشَّياطين ... وفي ثوانٍ معدودةٍ قام الشَّياطين الأربعة بتغيير ملابسهم ليرتدوا جميعًا زيًّا أحمر اللون مطبوعًا عليه كلمة «إغاثة دولية» باللون الأزرق ووضعوا قبعاتٍ بلاستيكيةً على رءوسهم عليها نفس الكلمة.

قال «سلودان» وهو ينظر للشياطين: إنكم الآن ضمن طاقم «إغاثة» دولي، وهذه هي الطريقة الوحيدة التي أضمن بها سلامتكم، فكما تعرفون الوضع بـ «سراييفو» في منتهى الخطورة، وربما أسرتكم القوات «الصربية» على حدود «سراييفو»، إذ لم ترتدوا هذه الملابس ... ثم أكمل «سلودان»: إن القوات «الصربية» تسيطر الآن على معظم أنحاء «سراييفو»، وربما تسقط كلها في أيديهم خلال أيامٍ، أرجو أن تتملَّكوا أعصابكم وأنتم تشاهدون المناظر المؤلمة، فسترون «المسلمين» و«الكروات» في شتى أنحاء «سراييفو» يعانون من الجوع والتشرُّد في الشوارع فلا تُسرفوا في العواطف، وتأكدوا أنكم مراقبون من ناحية القوات «الصربية»؛ فهي تعرف كيف تؤدِّي فرق الإغاثة دورها ... وأي انفعال زائد قد يعرِّض حياتكم للخطر فكونوا حَذِرين.

قال «أحمد» وهو يُطمئن «سلودان»: لا تكُن قلِقًا يا صديقي، فنحن مُدرَّبون على هذه العمليات، وسترى أننا نؤدِّي دَوْرنا بكفاءة تامة.

ما كاد «أحمد» ينتهي من جملته حتى لاحت لهم من بعيدٍ لافتة كبيرة مكتوب عليها باليوجوسلافي: مرحبًا بكم في «سراييفو» ... ثم دوَّى صوت انفجارين على التوالي ... فصاح «سلودان»: إن الليلة هادئةٌ، فالقوات لا تستأنف عملياتها الحربية إلا مع طلوع النهار، ولعلَّ هذين الانفجارين بداية يوم مليءٍ بالقتلى والجرحى!

انحرفت السيارة الصغيرة يمينًا ويسارًا قبل أن تتوقَّف أمام منزل قديم تحيطه من كلِّ جانب بقايا أطلال منازل أخرى هدمتها القوات «الصربية» ... هبط الشَّياطين من السيارة واحدًا وراء الآخَر وساعدهم «سلودان» في حمل حقائبهم، وتوقَّفوا أمام المنزل ليخرج «سلودان» من أحد جيوب سترته كشَّافًا كهربائيًّا، وألقى بضوء الكشَّاف على قفل الباب، ثم دسَّ فيه مفتاحًا صغيرًا، وسرعان ما انفتح الباب لتفوحَ من المنزل رائحةُ الذكريات والصمتُ الحزين.

تقدَّم «سلودان» داخل المنزل، ثم أشعل عود ثقاب ليُضيء إحدى اللمبات التي تعمل بالكيروسين، وصاح مخاطبًا الشَّياطين: معذرة ... فليس هناك كهرباء ولا مياه، وستعيشون حياتكم بطريقة بدائية للغاية، فأرجو ألا يُضايقكم هذا.

ثم أكمل حديثة قائلًا: وأنا سأحاول دائمًا توفير المياه لكم على ألا تستخدموها في الاستحمام، فهي فقط للشرب أو غسيل الوجه على الأكثر ... فلا توجد مياهٌ ولا كهرباء هنا في «سراييفو»، بل ولا طعام أيضًا، والناس هنا تعيش على القليل الذي قد تُيسِّره الظروف عن طريق فِرَق الإغاثة التي تُرسلها بعض الدول الأوروبية والإسلامية من شتَّى أنحاء العالم. صمت «سلودان» وهو يفرك عينَيه ثم تحدَّث وهو يتثاءب: إنكم مُرهَقون بكلِّ تأكيد ... سأترككم تنامون بعض الوقت وسأعود في التاسعة صباحًا لأكون رَهْن إشارتكم ... وانصرف «سلودان» بعد أن ودَّع الشَّياطين وعلى شفتَيه ابتسامة إشفاق.

استسلم «بو عمير» و«قيس» للنوم، بينما ظلَّ «أحمد» و«فهد» يتنقلان داخل المنزل من غرفة إلى غرفة وهما يتحدَّثان.

قال «أحمد»: لعلَّ هذا المنزل كان ملكًا لإحدى الأسر المُسلِمة وتركوه وفرُّوا من بطش «الصرب». ردَّ «فهد»: وهو ينظر لصورة مُعلَّقة على الحائط لشيخ طاعنٍ في السن يرفع يدَيه عاليًا بالدعاء: بل هذا أكيدٌ، ولكن ما يُحيِّرني هو موقف العالم تجاه هذه المأساة المروعة.

قال «أحمد»: لقد وضحت الرؤية تمامًا ... لقد أصبح العالم الآن تحكمه المصالح. وانحنى «أحمد» ليلتقط حقيبة جلدية تبدو مهملة منذ فترة طويلة. فتح «أحمد» الحقيبة وكم كانت مفاجأة أن يجدها مليئة بالصور العائلية! طفل صغير يركض بحديقة المنزل، وفتاة تلعب بإحدى المراجيح ... وأخرى لرجل يضع نظَّارة فوق عينَيه ويطالع أحد الكتب وصورة لمسجد قديم وبعض الصور الأخرى تمثل أحد الأطفال في مراحل مختلفة من العمر ... رتَّب «أحمد» الصورَ من جديد، وقام بتلميع الحقيبة، ثم وضع الصور بداخلها وتنهَّد وهو يضع الحقيبة فوق أحد الدواليب، ويردِّد: ربما عادت الأسرة مرة أخرى لترى صورها.

كان آخِر ما قاله «أحمد» و«فهد» قبل أن يناما: ملعونة الحرب مهما كانت أهدافها، ثم غلبهما النعاس فاستسلما له ... وفي الصباح الباكر استيقظ الشَّياطين الأربعة على صوت المعارك وأصوات مدافع الهاون تهزُّ «سراييفو» كلها ... اغتسل الشَّياطين بقليل من الماء وتناولوا جميعًا طعام الإفطار وارتدوا ملابس الإغاثة الحمراء ووقف كلٌّ منهم ينظر إلى ساعته في انتظار حضور «سلودان».

قال «أحمد»: عسى ألا يتأخر، فـ «سلودان» هو المسئول الأول عن تحركاتنا إلى أن تصدر لنا التعليمات بالتحرُّك بمفردنا.

ردَّ «بو عمير» متسائلًا: وهل معنى ذلك أننا لا نتحرَّك إلا من خلال «سلودان» فقط؟! فهمَ «قيس» ماذا يريد قوله «بو عمير»، فقال مجيبًا عليه: لا تنسَ يا «بو عمير» أننا لا نعرف شيئًا هنا بالإضافة لخطورة الموقف بشكل عام.

توقَّف الشَّياطين عن الحديث عندما اندفع «قيس» ناحية باب المنزل وهو يقول: لقد وصل «سلودان»، لقد سمعت سيارة تتوقَّف أمام منزلنا.

قال «أحمد» وهو يحذِّره من فتح الباب: تريَّث يا «قيس»، قد يكون شخصًا آخَر غير «سلودان»، فانتظر حتى ترى ثم وجَّه حديثه إلى بقية الشَّياطين: كونوا مستعدين فقد يحدث أيُّ شيءٍ لا نتوقَّعه وفهم الشَّياطين معنى كلام «أحمد» فتفرَّق كلٌّ واحدٍ منهم باتجاهٍ آخِذًا وَضْع الاستعداد لمواجهة أيِّ موقف جديد ... ثوانٍ مرَّت ثقيلة، سمعوا فيها طرقات على الباب الخشبيِّ العتيق، سمعوا بعدها صوت «سلودان» وهو ينادي عليهم تقدم «أحمد» صَوْب الباب ووضع يده اليمنى على مسدسه سريع الطلقات، بينما فتحت اليد اليسرى الباب بحذرٍ ... كان «سلودان» يبتسم، دخل من الباب وهو يحمل مجموعة زجاجات من المياه يضعها في حقيبة بلاستيكية.

ألقى «سلودان» تحية الصباح على الشَّياطين، ثم قال: الآن يمكنكم الذهاب معي إلى «القلعة»! فسأله «أحمد» أية قلعة تقصد؟!

فضحك «سلودان» وهو يقول: لا أعرف اسمها، ولكني أعرف الطريق إليها.

لم ينطق «أحمد» ونظر إلى الشَّياطين وعيناه تملؤها الدهشة والتساؤل.

تحرَّكَت السيارة الصغيرة وبداخلها الشَّياطين الأربعة بملابس رجال الإغاثة الدولية، وانطلقت السيارة لتقطع شارع الماريشال «تيتو»، ثم تنحرف يمينًا وتستمر في السير بشارع ضيِّق، ثم تتجه الناحية العكسية للشارع الضيق، ثم تبطِّئ من سَيْرها وهي تجتاز بعض الأبنية المهدمة، ثم ينحرف «سلودان» بها يسارًا لتقف تحت إحدى الأشجار العالية، ويهبط «سلودان» من السيارة ويتبعه الشَّياطين بملابسهم الحمراء وبيدهم حقائب بيضاء مرسوم عليها شعار لجان «الإغاثة الدولية»، سار «سلودان» أمام الشَّياطين عشر دقائق قبل أن يتوقَّف وهو يشير بيده إلى منزل مُكوَّن من طابقَين ويحيطه سور عالٍ، وقد ارتفعت هامات الأشجار من خلف السور فحجبت معظم المنزل عن الرؤية.

قال «سلودان» وهو يشير إلى المنزل المختفي وراء الأشجار: هذه هي القلعة، فلنقترب قليلًا حتى تروها جيدًا ... واقترب الشَّياطين بخطوات محسوبة للأمام، ثم توقفوا مرة أخرى عندما مرَّت أمامهم سيارة حربية يطل منها بعض الجنود بملابسهم المزركشة، حيُّوا الشَّياطين وهم يلوحون بأسلحتهم ويشيرون بعلامات النصر.

قال «سلودان»: هؤلاء جنود «صربيون» يتجهون إلى ساحة القتال ... ثم أشار حوله وهو يقول: إن معظم «سراييفو» أصبحت في قبضة «الصربيين» ويحاولون الاستيلاء على ما تبقَّى منها.

سأل «أحمد» «سلودان»: أظنُّ مهمتك انتهت الآن يا صديقي!

فضحك «سلودان» قائلًا: أعتقد ذلك يا سيدي!

قال «أحمد»: وهل السيارة ستكون معنا أم سترحل بها؟

فقال «سلودان»: لقد حدث سوء تفاهمٍ، إنني لن أترككم إلا عندما ترحلون، ولكن مهمتي انتهت بشأن القلعة، وأشار مرةً أخرى باتجاه المنزل، ثم أكمل: ومنذ هذه اللحظة، فأنا أعمل تحت لوائكم.

فقال «أحمد»: إذَن اذهب وأحضِر السيارة إلى هنا!

غاب بعدها «سلودان» قليلًا، وسُرعان ما ظهر بالسيارة «الزستافا» الصغيرة. توقَّفَت أمام «أحمد» ليجلس هو على عجلة القيادة وأشار لـ «بو عمير» أن يصعد معه، بينما ظلَّ «فهد» و«قيس» وبصحبتهما «سلودان» ... تقدَّم «أحمد» بالسيارة باتجاه المنزل، ودار حوله مرَّتين بطريقة خادعة حتى لا يلفت نظر أحد ... ثم عاد من جديد حيث ينتظره

«فهد» و«قيس» ومعهم «سلودان» وركبوا جميعًا السيارة واتجهوا إلى المنزل الذي يسكنون فيه ... وقد قاد «أحمد» السيارة بتوجيهات من «سلودان» حتى يتعرَّف على الطريق.

وما إن اقتربت السيارة من المنزل حتى سمع الشَّياطين ما يشبه حديثًا بعيدًا!

اقترب الشَّياطين أكثر، وظهر الصوت بوضوح كانا لرجلين يتحدَّثان بلهجة «يوجوسلافية» ويضحكان وكأنهما في رحلة خلوية.

تقدَّم «أحمد» من الباب وقبل أن يدفعه انفتح الباب بمفرده، وكانت المفاجأة التي لم يتوقعها أحدٌ!

أحداث متلاحقة!

دهش «أحمد» لحظات، ولكن استردَّ ثباته بسرعة بعد أن شاهد رجالًا يجلسون حول المنضدة الصغيرة وقد وضع أحدهم قدمَيه فوقها، بينما أسند ظهره للوراء قليلًا، ضحك وهو يرحِّب بـ «أحمد» ويدعوه للدخول ... وخطا «أحمد» خطوتَين للأمام، وتبعه «فهد»، بينما ظلَّ «بو عمير» و«قيس» خارج المنزل بعد أن اتخذا وَضْع الاستعداد تحسُّبًا لأية مفاجأة ... كان الرجال يتحدَّثون بـ «اليوجوسلافية»، وطبعًا لم يفهم «أحمد» شيئًا ممَّا يقولون ... ولكنهم كانوا يتحدثون بصرامة وجِدَّة.

كان «سلودان» في تلك الأثناء بجانب «بو عمير» و«قيس» يستمع إلى ما يقوله الرجال من أسفل النافذة التي وقف تحتها قال «سلودان» بصوت هامس: إنهم يستجوبون «أحمد» ويسألونه من أي بلدٍ يكون، بل وصلَ بهم الأمر بأن يشكُّوا فيه وأيضًا في بدلة الإغاثة التي يرتديها ... قال أحدهم وقد سمعه «سلودان» أيضًا فلنجعلهم يعترفون أو يكشفون هُويتهم قبل قتلهم وخاصة أنهم يملكون الكثير من الطعام وربما معهم الأكثر من النقود ... تقدَّم أحدهم إلى «أحمد» وكان عملاقًا قويَّ البنية غزير الشعر وقد تدلَّى شاربه الضخم على جانبَي فمه حتى أخفاه تمامًا ... وقال الرجل وهو يبتسم في سخرية: ما هي حكايتكم بالضبط؟

ووضع فوهة مدفعه الرشَّاش في عين «أحمد»! كان «أحمد» يعلم تمامًا أن «بو عمير» و«قيس» ومعهما «سلودان» سوف يقومون بالتصرُّف، وإنْ مرَّ بذهنه خاطر أن يكون «سلودان» خائنًا.

كان «بو عمير» في هذه اللحظة قد تسلَّق المنزل من الخلف ومعه «قيس» واتجها ناحية المدخنة ومن خلال فتحة ضيقة استطاع تحديد المكان ومعرفة مدى إمكانية التدخُّل

في المعركة بعيدًا عن استعمال السلاح ... ومن فَتْحة ضيِّقة بأعلى السقف قفز «بو عمير» على العملاق ذي الشارب الضخم، بينما قفز «قيس» فوق الرجل الآخَر، واندفع «أحمد» باتجاه الرجل الثالث وبحركة سريعة استطاع «فهد» الاستيلاء على المدافع الرشاشة التي يستعملها الرجال ... ودارت معركة قصيرة بين الرجال الثلاثة والشَّياطين حسمها «فهد» عندما سحب زناد أحد الرشاشات وأعلن أنه سوف يُطلقها إذا لم يلتزم الجميع بالأوامر الصادرة منه ... تراجع الرجال الثلاثة للخلف، بينما اندفع «بو عمير» خارج المنزل. بحثًا عن «سلودان» ولشدة دهشته وجده في مكانه تحت النافذة، نادى عليه فأسرع «سلودان» وهو يردِّد ماذا حدث؟! مَن هم؟ كيف هذا؟! فهدأ «بو عمير» من روعه ... وأمره بالدخول من أجل مخاطبة الرجال الثلاثة ... كان «سلودان» يتحدَّث «اليوجوسلافية» بطلاقة، كما كان يتحدَّث «الإنجليزية» و«الفرنسية»، ودار حوار طويل بين الشَّياطين والرجال الثلاثة بمساعدة «سلودان»، فهمَّ الشَّياطين من خلال الحوار أن هؤلاء الرجال جنود حرب كانوا يقومون بحركة تمشيط للجزء المستولى عليه من «سراييفو» بحثًا عن «المسلمين» و«الكروات» على حدٍّ سواء.

تبادل «أحمد» المكان مع «فهد»، فقد أمسك بالبندقية الآلية «الرشاش»، بينما سارع «فهد» و«بو عمير» و«قيس» بتقييد الرجال ووضعهم داخل إحدى الغرف وأغلق الباب عليهم إلى حين التفكُّر فيما يمكن عمله.

حول مائدة الطعام جلس الشَّياطين الأربعة ومعهم «سلودان» الذي كان في غاية السعادة بما حدث، وقد زاده ما حدث كثيرًا من الاطمئنان على نفسه، فراح يتحدَّث بطلاقة وينبه الشَّياطين للمخاطر، مؤكِّدًا أنه قد يحدث نفس الموقف مرة أخرى أو يتكرَّر مراتٍ ما دامت المسألة تخضع لقانون الصدفة الذي لا يرتبط بأيِّ مقاييس أو يخضع لأي احتمالاتٍ!

نظر «أحمد» إلى بقية الشَّياطين ثم قال: لقد حان الوقت كي نتحرك.

أشار لـ «فهد» أن يرسل برقيةً إلى رقم «صفر» يبلغه فيها بضرورة وجود «عثمان» معهم في هذه المغامرة ... حتى يمكن الاستعانة به كلما اقتضت الحاجة ... ويبلغه أيضًا أنهم بخيرٍ، وكذلك «سلودان».

نظر «سلودان» إلى «أحمد» عندما سمع اسمه فابتسم له «أحمد» وضحك بقية الشَّياطين وانهمك معهم «سلودان» في الضحك.

دخل «فهد» إحدى الغرف وأخرج جهاز اللاسلكي الصغير ورفع إريال البث والاستقبال، ثم أخذ يوجه الجهاز يمينًا ويسارًا حتى ضبطه على موجةٍ معيَّنة راح بعدها يرسل الإشارة التالية:

من الشَّياطين الـ ١٣ إلى رقم «صفر» ٥٠٠ «وقفة» ١٢–١٤–١٦ «وقفة» يتحرَّك ٢٢–١٤ «وقفة» ٢٧٠–٣٠٠–١٣–٢٢٠–١٤ «وقفة» ١١–٧١–٣–٥ «وقفة» «سلودان» ٣٠٠–٧٠٠–٢٥–١٣–١٢–١٠ «وقفة» وأخيرًا م. أ. ل. ت. انتهت البرقية وجلس «فهد» ينتظر الرد.

كان «أحمد» في تلك الأثناء يمسك بقلمٍ، وأخذ يرسم به بعض الصور، ويدوِّن بعض الأرقام وأخيرًا صاح وهو ينادي على «فهد» كي ينضم إلى بقية الشَّياطين، وراح «أحمد» يشرح لهم خطة الاقتحام للقلعة أو المنزل الذي أُسِر فيه المصوِّر العربي «عبد الرحمن خميس». كانت خطة «أحمد» تعتمد بشكلٍ أساسيٍّ على وجود «عثمان» لإمكانية استخدام بشرته السمراء ليلًا، وكذلك كرته الجهنمية ... وفور انتهاء «أحمد» من شرح خطة الاقتحام حتى صاح «فهد» هناك رسالة ... ثم أخرج جهاز اللاسلكي وراح يحرِّكه في جميع الاتجاهات حتى أُضيئَت لمبةٌ حمراء صغيرةٌ في الغرفة المغلقة وتلقى الرسالة التالية: «من الزعيم رقم «صفر» إلى مجموعة التحدي بـ «سراييفو». ٢٧ «وقفة» ٧٠٠–٣٥٠–١٧٥ «وقفة» ٢٠٠–١٠٠–٥٠–٢٥–١٢–٦–٣–«وقفة» ممكن ٦٠٠–٤٠٠ «وقفة» ٩٠٠–٧٥٠–١٠٠٠ «وقفة» بالتحرك ليلًا عند ٦٠٠–١٦٠–٤٥٠–٣٠–٧٠–٤ «سلودان» وأخيرًا م. ل. «صفر».»

وسرعان ما نقل الرسالة إلى بقية الشَّياطين.

كانت الرسالة من رقم «صفر»، وتقول حاولوا التحرُّك في أسرع وقت ممكن فالوضع خطير والتأخير ليس في صالحكم لا تحاولوا التجول بـ «سراييفو» ... والزموا المكان الآمن الذي تسيطر عليه القوات «الصربية» أما من ناحية الاستعانة بـ «عثمان». فذلك ممكن أن يأتي ليلًا ولا يتحرَّك إلا ليلًا أيضًا. فلون بشرته بقَدْر ما يمكن أن يفيدكم فقد يضرُّكم أيضًا ... أما من ناحية عميلنا «سلودان» فهو مصدر ثقتنا فاطمئنوا.

وفَوْر أن سلم «فهد» الرسالة إلى «أحمد» وقرأها حتى قال: لا بد من الاتصال بـ «عثمان» في أقرب وقت ... فساعة الصفر قد اقتربت واقتحام القلعة لا بد وأن يتم خلال يومين قبل أن يشعر بنا أحدٌ. فربما يغيِّرون المكان أو يقْدِمون على قتل «عبد الرحمن خميس».

كان «سلودان» يستمع إلى كلمات «أحمد» الحماسية ويبتسم برغم أنه لا يفهم شيئًا ... بينما صاح جنود الصرب المقيَّدون في صوت واحد، فزِعَ له الشَّياطين، فانطلقوا ناحيتهم حيث كمَّموا أفواههم وأحكموا القيود عليهم.

شعر «فهد» من جديد بأن هناك رسالة أخرى وعاجلة، فذهب ليتلقاها بالغرفة ... كانت الرسالة قصيرةً مختصرةً من رقم «صفر»: «إلى مجموعة التحدي «بسراييفو» ... ٧٠٠ «وقفة» ٣٢٠–٩٥–١١٢ في الطريق ٤٠٠–١٧٠–٣٥٠ «وقفة» ٦٤٠–١٣–٢٨–٦٠ بسرعة.» ... وانتهت الرسالة.

كانت كلمات الرسالة واضحة ... «عثمان» في الطريق إليكم، وسيذهب «سلودان» مساء اليوم لاستقباله بناءً على أوامرنا، وانتهت الرسالة.

قناصة الموت!

كان الشَّياطين الأربعة ومعهم «سلودان» في غاية القلق، فجنود «الصرب» المأسورين عِبْء جديدٌ عليهم، وقد يدفع زملاءهم للبحث عنهم واكتشاف أمر الشَّياطين.

ثم هناك شيء هام جدًّا، وهو حضور «عثمان» على وجه السرعة، فالخطة الموضوعة لفك أسر المصوِّر العربي «عبد الرحمن خميس» يلعب فيها «عثمان» دورًا بارزًا، وأي تأخير معناه تأجيل ساعة الصفر.

تناول الشَّياطين وجبة عشاء سريعةً، ودوَّت المدافع وطلقات الرصاص تملأ المكان وتهتزُّ لها الأبنية القائمة ... انصرف «سلودان» لإحضار بعض زجاجات الماء، بينما راح «أحمد» يراجع من جديد خطة الاقتحام، ويظهر لكل واحدٍ من الشَّياطين دوره في الخطة.

قال «بو عمير»: متى تأذن ساعة الصفر؟!

فأجاب «أحمد»: إنني أودُّ أن أجعلها الآن، ولكن لا بد أن ننتظر «عثمان».

فتساءل «قيس» عن دَوْر «سلودان» في الخطة، فأجابه «أحمد»: «سلودان» له دور كبير في إكمال الخطة، فهو الذي سيخرجنا من «سراييفو» حين تهدأ أصوات المدافع، فجأة سمع «بو عمير» صوتًا يعرفه جيدًا ... فأرهف السمع مرةً أخرى وهو يردِّد: إنه «عثمان»!

تعالى صوت «البومة» من جديد، وقفز «قيس» بسرعة، واندفع في اتجاه الباب ليفتحه غير عابئ بتعليمات «أحمد»، وظهرت أسنان «عثمان» البيضاء أمام ظلمة الباب ومعه «سلودان».

أمام أقداح الشاي الساخنة أعاد «أحمد» شرح خطة اقتحام القلعة، وأعاد توزيع الأدوار من جديد، وضحك «عثمان» بعد أن عرف دوره، وابتسم وهو يردِّد: أمس أم اليوم؟

فضحك الشَّياطين، واقتاد «أحمد» «عثمان» إلى حيث تكوَّم جنود الصرب الثلاثة وفتح الباب عليهم، وقال لـ «عثمان»: هؤلاء أول غنائمنا في هذه المغامرة. وأعاد غلق الباب عليهم وهو يقصُّ كلَّ تفاصيل ما حدث لـ «عثمان».

نام الشَّياطين الخمسة هذه الليلة ومعهم «سلودان» بعمقٍ؛ حتى أيقظتهم في الصباح طلقات المدافع «الهاون» الثقيلة، فقاموا على أصواتها المفزعة، ثم اغتسلوا بقليل من الماء وتناولوا بعدها طعام الإفطار، ثم راحوا يتدارسون الخطة، فقد حانت ساعة الصفر، ففي مساء هذا اليوم ستكون المواجهة الصعبة مع «قناصة الموت».

ذهب «سلودان» لتدبير سيارة أخرى أكبر حجمًا من «الزستافا»، وكذلك تأجير أحد القوارب السريعة التي ستنقل الشَّياطين إلى مدينة «باري» الإيطالية تمهيدًا للسفر إلى «إيطاليا» ... وما إنْ غربت الشمس في ذلك النهار الطويل الذي لم تتوقَّف فيه المدافع حتى استعد الشَّياطين لأداء مهمتهم ... كان «سلودان» قد عاد ومعه سيارة «بيجو» ستيشن، قال لـ «أحمد» فَوْر دخوله المنزل بلكنة إنجليزية وكما يفعل الجنود مع رؤسائهم: كله تمام يا أفندم ... ضحك الشَّياطين، ولوَّحوا بقبعاتهم في الهواء وكأنهم يشحذون هممهم.

كانت الساعة تشير إلى الثانية عشرة ليلًا. حين تحركت السيارتان «البيجو» و«الزستافا» تحملان الشَّياطين في ملابس رجال الإغاثة بملابسهم الحمراء. كان «عثمان» يقود السيارة «الزستافا»، ومعه «أحمد» و«بو عمير»، وكان «سلودان» يقود السيارة «البيجو» ومعه «فهد» و«قيس»، كان الظلام حالكًا، ولا ثمة أثر للنجوم بعد أن ظللت سحب الدخان والحرائق المكان. كانت السيارتان تمضيان على الضوء الخافت لهما حتى لا تلفتا نظر أحدٍ. وحيث ينتشر جنود «الصرب» في الشوارع ويقومون من حين إلى آخَر بعمليات التمشيط للمنازل والأبنية القائمة للتأكُّد من عدم وجود «مسلمين» أو «كروات» في هذه المنطقة ... وانحرفت السيارتان يمينًا، ثم واصلتا السير وتوقَّفَتا بناءً على أوامر «أحمد».

كان «عثمان» في هذه اللحظة يستبدل ملابسه الحمراء بملابس أخرى سوداء تمامًا ... وانطلق الشَّياطين في الظلام الدامس حسب الخطة التي وضعوها وتمرَّنوا عليها كثيرًا ... كان على «عثمان» التسلُّل بجوار سور المنزل ومعه مسدس الحقن المخدِّرة وكُرته الجهنمية ... على أن يتولى القضاء على المجموعة التي تختبئ بين فروع الأشجار، بينما يقوم «فهد» و«بو عمير» بالتسلُّل خلف المنزل ليصعدا فوقه ويقتحماه من عند مدخنة المدفأة ... على أن يقتحم «أحمد» و«قيس» المنزل من الأمام، وتلقَّى «عثمان» الأمر بالتحرُّك واتفقوا على أن

يُطلق صوت «الوطواط» عند إنجازه المهمة الصعبة ... وتحرَّك «عثمان» بملابسه السوداء التي تشبه لون بشرته كالشبح وسط الظلام، حتى إن «أحمد» شعر بالسعادة، وأحسَّ بأن خطته سوف تنجح ما دام «عثمان» يؤدِّي دوره على أكمل وجه.

ثم تحرَّكت المجموعة الثانية «بو عمير» و«فهد» باتجاه المنزل من الخلف ... بينما تحرَّك «أحمد» و«قيس» بحذرٍ ناحية المنزل من الأمام ... كان «سلودان» في تلك الأثناء يقوم بقيادة السيارتين؛ واحدة وراء الأخرى؛ ليجعلهما قريبتَين قَدْر المستطاع من المنزل.

عندما تسلَّق «عثمان» سور المنزل كان لا يسمع أيَّ صوتٍ هناك على الإطلاق حتى خُيِّل له أنه لا أحد بداخله أو بخارجه، وفجأةً سمع صوت سعال أحد الأشخاص آتيًا من أعلى إحدى الأشجار، فاقترب منه وبحرص شديد قام بتحديد مكان الرجل. تقدَّم «عثمان» خطوتين وأخرج مسدس الحقن المخدرة وصوبه في اتجاه الرجل مرتين على التوالي سمع بعدها «عثمان» أنَّات الرجل قبل أن يسري المخدِّر في دمه.

كان الظلام الكثيف يساعد «عثمان» على نجاح مهمته، فبعد أن تخلَّص من الرجل الأول تحرَّك ببطءٍ ناحية اليسار باتجاه المنزل من الأمام وألقى بأحد الأحجار الصغيرة بين غصون الأشجار محدثًا به صوتًا، وسرعان ما سمع صوتًا يأتيه، فتقدَّم باتجاه الصوت ودقَّق النظر، فشاهد أحد الحراس يقوم بتجهيز بندقيته الآلية وهو يلتفت باتجاه الصوت الذي أحدثه «عثمان» بالحجر الصغير.

وقف «عثمان» ثواني حتى واتته الفرصة فأطلق سيلًا من الحقن المخدرة من مسدسه، وسقط الرجل من أعلى الشجرة على الأرض، وسرعان ما شاهد «عثمان» رجلًا آخَر يُسرع باتجاه الصوت ويتلفت يمينًا ويسارًا وكأنه يبحث عن شيءٍ مفقودٍ، أخرج «عثمان» بسرعة كُرته الجهنمية وأطلقها كالصاروخ فأصابت الرجل فوقع على الأرض بلا حراكٍ من قوتها.

أطلق «عثمان» بعدها صوت «الوطواط»، وما إن سمعه «بو عمير» و«فهد» حتى انطلقا من خلف المنزل وتسلَّقا حوائطه العالية، في نفس الوقت الذي اندفع فيه «أحمد» و«قيس» إلى المنزل من الأمام، كان عنصر المفاجأة هو الحاسم في هذه المغامرة كما قال رقم «صفر».

ففور اقتحام المنزل دارت معركة قصيرة بين «بو عمير» و«فهد» ورجلين كانا يقومان بحراسة «عبد الرحمن خميس» ... لم يتوقَّعا على الإطلاق أن يهاجمهما أحد، ولذلك فقد تركا سلاحهما وجلسا يتمازحان، قام «فهد» و«قيس» بتقييد الرجلَين سريعًا وألقيا بهما جانبًا.

وفي تلك الأثناء صعد «أحمد» و«بو عمير» للبحث عن «عبد الرحمن»، كان الوقت يمرُّ سريعًا، وكان على «عثمان» مراقبة المنزل من الخارج تحسُّبًا لأية تطورات، على أن يطلق صوت «الوطواط» إن لزم الأمر، واستغرق البحث عن «عبد الرحمن خميس» المصور العربي الشجاع دقائق معدودة، بعدها انضم «قيس» و«فهد» للبحث مع «أحمد» و«بو عمير» الذي عثر عليه بإحدى الغرف وهو في حالة إعياء وضعف شديدَين.

كانت السيارتان «الزستافا» و«البيجو» قد اقتربتا من المنزل وسرعان ما صعد الشَّياطين الخمسة بداخلها ومعهما «عبد الرحمن خميس» الذي لم يصدِّق نفسه، وأخذ يفرك في عينَيه وهو يردِّد: ماذا حدث؟! مَن أنتم؟!

سارت السيارتان ببطءٍ وبدون إضاءة حتى خرجتا من «سراييفو»، وسرعان ما أسرعتا في الطريق المؤدي إلى «سبليت» ومنها استقل الشَّياطين القارب وودعهم «سلودان» بعناقٍ حارٍّ، وفي عينَيه بريق الإعجاب والحزن.

أخيرًا وصل الشَّياطين إلى مدينة «باري» الإيطالية، ومنها إلى «روما».

عندما وصلوا جميعًا إلى الشقة التي استأجروها، أسرع «أحمد» إلى جهاز اللاسلكي وتحدَّث إلى رقم «صفر» قائلًا: من الشَّياطين باختصار، تم إنقاذ المصور «عبد الرحمن خميس».

– لم تقع خسائر من أي نوعٍ.

– كانت الخطة محكمة، وأدَّت إلى نتائجها المطلوبة.

– سنقضي ثلاثة أيام في «روما».

– سيركب «عبد الرحمن» الطائرة التي تغادر «روما» في تمام الساعة الواحدة والربع متجهًا إلى «إسبانيا» أولًا.

– رجاء أن يوجد أحد في انتظاره في «مدريد» لاستكمال الرحلة ... الفيلم المطلوب سيكون معه.

جلس «أحمد» ينظر إلى زملاء المغامرة ... كانت مغامرة سهلة رغم مخاطرها ... ولكنَّ الأيام كانت تحمل له ولهم مغامرة أشدَّ خطرًا وأكثر ضراوةً نقرؤها معًا في العدد القادم!

هنـــداوي